العرب
الخميس 2021/01/21
السنة 43 العدد 11947

مسرح المتفرج الصغير التزام دائم بالقضايا الكونية

«راعي الصحراء» عرض دمى يبهر الصغار والكبار في تونس

يحصر الكثير من المختصين المسرح في بيئة المدينة، ويعتبرونه فنا مدينيا بالضرورة. ولكن، مع تطور الفن المسرحي في فضاءات ومناخات أخرى خارج حدود المدن، صار بالإمكان الحديث عن مسرح خارج المدينة مثل مسرح الصحراء. ولكن هل لزاما أن يكون مسرح الصحراء خارج حدود العلبة الإيطالية؟ أم يمكنه أن يكون داخلها ولكن بتقنيات خاصة؟ هذا ما يجيبنا عنه بشكل غير مباشر العرض المسرحي التونسي الموجه للأطفال "راعي الصحراء".

متعة الحكاية وشاعرية المكان

إبراهيم عياري

منذ أيام قليلة عرض مركز الفنون الدرامية بمدينة تطاوين (جنوب تونس) المسرحية العرائسية (مسرحية دمى) "راعي الصحراء"، في باكورة إنتاجه الموجّه إلى الأطفال.

هذا العمل الذي أجمع النقاد والمتخصصون على تميزه، جاء من تأليف علي اليحياوي وإخراج عايدة جابلي، يطرح موضوع الصحراء كفضاء بيئي تعبث به أيادي الإنسان عبر تجاوزات تكون آثارها خطيرة، مثل الصيد الجائر، بالإضافة إلى كونها حقلا معرفيا بامتداداته الجمالية والتأملية والشعرية.

رسالة عبر الدمى

امتزجت في هذا العرض متعة الحكاية ورشاقة السرد بشاعرية الحوار وجمالية المشهد، وذلك من خلال الإتقان الذي ميز صناعة الدمى وتحريكها، ما ينمّ عن خبرة اكتسبها هذا الفن المتجذر في تونس منذ عقود وصار ينافس مسارح عريقة في أوروبا وآسيا.

وفي هذا الصدد قالت الكاتبة مفيدة خليل عن محركي الدمى الذين أبهروا المتفرجين الصغار والكبار على حد سواء، إنهم "يصنعون الفرجة ويسرقون الإعجاب والإقناع، حركوا العرائس بكل مهارة وحملوا الأطفال إلى عوالم من الخيال، نقدوا وشاكسوا، فكانوا صوت الصحراء على الركح".

الدمى صممها وأجاد في دقة تفاصيلها الفنان الحبيب الغرابي، ابن الجنوب التونسي الذي كسب من الصحراء مهارات عديدة. عشق الرمال فصنع منها أجمل المشهديات مثل "مشهدية الرمال المتحركة" التي مثلت تونس في أوروبا وأفريقيا.

والغرابي فنان تشكيلي متعدد المواهب، لا يرضى بغير الإبهار والسحر، فكلما انكب على عمل إبداعي كانت نتيجته رائعة، وفي مسرحية «راعي الصحراء» تحضر بصمته في العرائس المصنوعة بكل دقة لتبدو وكأنها حقيقية حين تتحرك أمام المتفرج.

شعرية الصحراء

حرّك الدمى كل من الممثلين عبدالسلام حميدي وحسان مري ورياض الرحموني وعائدة جابلي وبلقيس مصباح، وأشرف على تقنيتي الصوت والإضاءة، شكري قمعون وإبراهيم دقنيش، أما الملابس فصممتها أسماء حمزة، مع توضيب عام لعبدالله الشبلي.

"راعي الصحراء" مسرحية دمى تنبه إلى مخاطر الصيد العشوائي و"المنظم" أيضا من طرف سماسرة ووسطاء يستقدمون أثرياء عرب وأجانب لقنص أنواع نادرة من الغزلان والطيور، ما يهدد بانقراضها ويفقد البيئة توازنها.

هذه الرسالة التوعوية حملتها جماليات لافتة على مستوى الشكل والمضمون، وأكدت أن مسرح المتفرج الصغير هو التزام دائم بقضايا كونية تكرس وعي الطفل بضرورة الحفاظ على البيئة، وذلك بأسلوب بعيد عن المباشرة والطرق التعليمية المنفرة، حيث عمد صناع العمل إلى تحفيز ذاكرة الطفل وإغناء خياله عبر جماليات تقارب الواقع وتتفوق عليه.

وتظهر شعرية الصحراء في كل مشهد من المسرحية حتى في تلك الفواصل المظلمة، بالإضافة إلى التسجيلات الصوتية، ما يصحح المفهوم النمطي السائد عن الصحراء من كونها مرتبطة بالوحشة والفراغ والخوف.

تذكرنا هذه الشاعرية التي صاغ بها علي اليحياوي نصه بتلك الغنائية التي طبعت روايات الكاتب الطوارقي الليبي إبراهيم الكوني، ذلك أن الأخير يمعن في استنطاق الصحراء ومحاورتها فيذهب بها بعيدا حتى تصبح شخصية مستقلة بذاتها بل وتمسي فضاء معرفيا تتشكل داخله منظومة فكرية وخطاب شعري شديد الخصوصية.

> «راعي الصحراء» مسرحية دمى تنبه إلى مخاطر الصيد العشوائي و«المنظم» على البيئة وأنواع نادرة من الحيوانات

وفي هذا الصدد، يقول مؤلف المسرحية "أشعر بأنني مسكون بالصحراء، يعني لست من يسكن الصحراء ولكن الصحراء هي التي تسكنني، لأن في الصحراء فقط يتجسد مبدأ وحدة الكائنات". ويستطرد اليحياوي عاشق الصحراء قائلا "في الصحراء تعلمت أن تكون الشجرة، أصغر شجرة أو أصغر نبتة قرينا لي، في الصحراء أيضا تعلمت تحريم أن تنتزع عودا أخضر، في الصحراء تعلمت أن لا أفقس بيضة طير".

في المسرحية تجتمع مكونات الحياة في الصحراء، أي الإنسان والحيوان (الفنك والأفعى والإبل والورل والعقرب والغزال) والنباتات (الشجيرات الصغيرة والأشواك) في عمل مسرحي واحد يحاكي الحياة في الصحراء والخطر الذي يتهددها، وخاصة الغزال.

كل هذه الأطروحات والأفكار ذات المضمون الإنساني، حملتها قوالب جمالية في غاية الإتقان وصل حدّ الإبهار من خلال تأثيث فضاء سينوغرافي متكامل ومتناغم العناصر، فشاهدنا كل ألوان وأطياف الصحراء بكل تقلباتها من خلال إضاءة ارتكزت على اللون الأصفر ومشتقاته مع انتقالات سلسة في الديكور واستعمالاته المتعددة.

وقد اهتم العمل بالتفاصيل والدقة البالغة في التصاميم مستفيدا من تقنيات بصرية تقترب من السينما في جانبها التوثيقي كمشاهد الصراع بين حيوانين في لغة تنقل ما تخفيه الصحراء من ألغاز وخفايا وحالات بوح تلامس الشعرية وتتماهى معها أحيانا.

أما الموسيقى فكانت عنصرا أساسيا في العرض، حيث تحمل بدورها الطفل إلى تفاصيل الصحراء، صفير وفحيح يشبه فحيح الأفاعي، والأفعى تحضر في العرض تتحرك وتصارع لأجل البقاء وتصنع موسيقاها هي الأخرى، ونقرات تبدو كوقع أقدام الجمال على الرمال وهي تجري وتقاوم العاصفة، والجمال صنعت بدقة وأثثت للفعل الدرامي التصعيدي في المسرحية.

ولم يغفل العمل البعد الفولكلوري وتلويناته على الساحة التونسية مثل لباس الراعي المصنوع من صوف الأغنام أو وبر الجمال، بالإضافة إلى قطع وأكسسوارات كثيرة أخرى.

يحيلنا عرض "راعي الصحراء" إلى سؤال معرفي يتعلق بمدى تطويع البيئة الصحراوية والريفية عموما، للمسرح الذي يصرّ البعض على اعتباره فنا مدينيا، ولا علاقة له بالبيئة الصحراوية، في حين أن كل عناصر التجمعات الفرجوية متوفرة في هذه البيئة الغنية والساحرة.

السوري جوان جان: نصوص مسرحية عربية كثيرة كتبت للقراءة لا للعرض

دمشق – على امتداد مسيرته قدم المسرحي السوري جوان جان الكثير، كتابة ونقدا للمسرح. وقد ألف العديد من النصوص للكبار والأطفال ما كرسه متخصصا في الكتابة لأبي الفنون، إذ تعتبر تجربته إحدى التجارب المهمة في الكتابة المسرحية المعاصرة، وهو ما يؤكده تحوّل العديد من نصوصه إلى عروض داخل سوريا وخارجها.

ولكن جان الذي تخرج من المعهد العالي للفنون المسرحية بقسم النقد عام 1993، لم يكتف بتكريس نتاجه الأدبي للخشبة، بل أعد مؤلفات عديدة في النقد والتوثيق المسرحي مذكرا بشخصيات مؤثرة مثل فرحان بلبل وعبدالفتاح قلعجي، مسلطا الضوء على ظواهر مهمة مثل كتابه "قراءات في النص المسرحي السوري".

منذ أن كتب للمسرح القومي بدمشق مسرحية "معطف غوغول" إخراج سلمان صيموعة التي عُرِضت في العام 2000، انطلق جان في تجربة لافتة في التأليف المسرحي يمسح العشرات من النصوص، ولم يتوقف عند مسرحية "نور العيون" أو "أجمل رجل غريق في العالم"، بل امتد إلى مسرح الطفل.

كما قدم مؤلفات عدة نذكر منها كتاب "وراء الستار – مقالات نقدية في المسرح السوري"، "مسرح بلا كواليس – إطلالة على الحركة المسرحية السورية"، ونصوص مسرحية "حكاية المولود الجديد"، "وقت مستقطع"، "مونودراما ليلة الوداع" وغيرها من الأعمال المتنوعة بين التأليف والنقد.

ورغم أن جان يكتب للمسرح منذ سنة 2000 إلا أنه لا يجد غضاضة في قيام بعض المخرجين بالاقتباس من النصوص الغربية مؤكدا أن تجربة المسرح في دول الغرب تمتد لأكثر من 500 سنة قبل الميلاد، في حين أن عمرها لدينا لا يتجاوز 150 سنة. هناك فرق شاسع في الممارسة والعراقة، فالمسرح في سوريا فن وافد وليس أصيلا كالشعر، لأجل ذلك بدأ المسرح القومي في سوريا عمله سنة 1960 من نصوص لمبدعين عالميين كشكسبير وموليير وتشيخوف بهدف إطلاع الجمهور على هذا الفن.

ومن الأسباب التي تحد أيضا من اكتفاء مخرجينا بنصوصنا المحلية حسب رأي جان، وجود الكثير من النصوص العربية التي كتبت للقراءة وليس للعرض، وهذا ما يعيق وصولها إلى المخرجين، فبعضها ذهني أو فلسفي وأدبي بحت وليس له علاقة بالمشهدية المسرحية باعتبار أن معظم كتابنا بعيدون عن المطبخ المسرحي الذي يتم فيه صنع العمل.

ولكن من جهة أخرى يدعو جان أي مخرج أو كاتب مسرحي يريد اقتباس نص أجنبي إلى أن يعيد كتابته من جديد بما يناسب البيئة التي يريد تقديم أي نص ضمنها.

وعن رأيه في الحراك المسرحي السوري يشير جان إلى تأثره خلال العشر سنوات الأخيرة بما تعرضت له سوريا، حيث توقفت معظم المهرجانات المسرحية لعدة سنوات لكن الحياة بدأت تعود إلى الخشبة وتابع الجمهور عروضا كثيرة بمختلف المحافظات وانطلقت فعاليات جديدة تقام للمرة الأولى مثل مهرجان السويداء المسرحي.

يقول "يحلو لنقاد وباحثي المسرح العربي أن يتعاملوا معه ومع نتاجه الإبداعي، نصا وعرضا، كما يتعامل المؤرخون مع التاريخ توثيقا وتحليلا، من حيث اعتبار المنعطفات التاريخية الحادة كالحروب والغزوات والثورات نقاط علام (علامات تنقيط)، ولا تعتبر السنوات والعقود اللاحقة لها امتدادا للسنوات والعقود التي سبقتها".

من هذا المنطلق، يؤكد الناقد والكاتب المسرحي السوري أن الكثير من المسرحيين العرب يعتقدون أن المسرح العربي عموما بعد ما سمي "بثورات الربيع العربي" ليس امتدادا للمسرح العربي الذي سبق هذه (الثورات) ولا استكمالا لمسيرته بل يعتبرونه حالة مسرحية قائمة في حدّ ذاتها بأشكالها الفنية ونصوصها وتجلياتها الفكرية الأمر الذي يحمّل المبدعين المسرحيين العرب من كتاب ومخرجين مسؤولية مضاعفة لجهة إحساسهم بأن عليهم بذل المزيد من الجهود كي يرتقوا إلى مستوى المسؤولية التي حمّلهم إياها النقاد والباحثون العرب عندما اعتبروهم فاتحة عصر مسرحي عربي جديد.

وعن رأيه في المسرحيين الشباب سواء أكانوا كتابا أم مخرجين في سوريا، يلفت جان إلى وجود دعم رسمي يساعدهم على الانطلاق، مثل مشروع دعم مسرح الشباب الذي أطلقته مديرية المسارح عام 2017، لجذب الشباب الموهوبين وإتاحة الفرصة لهؤلاء للمشاركة في المهرجانات المسرحية التي تقام في أغلب المحافظات.

ويتوقف مؤلف مسرحية "ليلة التكريم" عند بعض المسرحيين الذين جمعوا التأليف مع الإخراج ونجحوا في ذلك أمثال الكاتب والمخرج الراحل طلال نصرالدين والكاتب سامر محمد إسماعيل والفنان هشام كفارنة والمخرج فيصل الراشد، مؤكدا أنه يشجع على هذا الأمر بشرط أن يكون المخرج قادرا على إيجاد نص مسرحي جيّد يوازي عمله كمخرج.

> أي مخرج أو كاتب مسرحي يريد اقتباس نص أجنبي عليه أن يعيد كتابته من جديد بما يناسب البيئة التي سيقدمه فيها

ويعرب عضو لجنة تحكيم مهرجان أيام الشارقة المسرحية، عن أمله في عودة مهرجان دمشق المسرحي ولو على نطاق ضيق لعروض سورية ومن الدول المجاورة.

أما عن تحقيق المزيد من الازدهار في الحركة المسرحية، فيرى جان أنها تحتاج إلى منصات مسرحية أكثر، معربا عن أمله في استثمار كل الخشبات الموجودة في المحافظات إضافة إلى الصالات التابعة للمؤسسات والوزارات ولاسيما وزارة التربية وتفعيلها عن طريق صيغة تعاقدية بينها وبين وزارة الثقافة بغرض جذب الجمهور بصورة أكبر.

وحول مجلة "الحياة المسرحية" التي يشغل رئاسة تحريرها معظم وقته، يوضح جان أنها تحظى بنسبة قراءة محليا وعربيا بالرغم من مرور أكثر من 40 عاما على تأسيسها، وتضم كتابا فاعلين على الساحة المسرحية من مختلف الأجيال في سوريا والوطن العربي، حيث تلاقي صدى لافتا إضافة إلى اهتمام وزارة الثقافة ووضع تسهيلات لاستمرار عملها رغم الأزمات، مؤكدا أنها استمرار لمشروعه المسرحي.

نحتاج إلى منصات مسرحية أكثر